٢١

إعجاز القرآن الكريم

عادل الاديب

الاشاره:

اعجاز القرآن الكريم موضوع هامّ لفت أنظار المفكّرين و الباحثين منذ عهد بعيد حيث إذا ما تصفّحنا ما كتب عن هذا الموضوع وجدنا أنّهم لم يدّخروا جهداً لتبيان حقائقه السامية و البحث عن جوانبه الدقيقه. من هذا المنطق و إيماناً بمدى أهمّيّة هذا الموضوع قدمّنا للقرّاء الاعزّاء القسم الأوّل من مقالة الاستاذ عادل الأديب في العدد السابق و هنا نقدّم القسم الثاني و الأخير من القالة. آملين من العلّي القدير دوام التوفيق و السدّاد للسائرين على درب القرآن العظيم.

بلاغة القرآن

إن القرآن الكريم بلغ من روعة بيانه و بلاغته و تجديده في أساليب البيان، حداً فاصلاً بين مرحلتين من تاريخ اللغة العربية و أساساً لتحول هائل في اللغة و أساليبها.

حتى إن قريشاً كانت لاتسمح لأحد بالاستماع الى القرآن، إحساساً منهم بأثره الهائل، و خوفاً من قدرته الفائقة على تغيير نفوسهم و هذا دليل على التحيز العظيم للبيان القرآني و عدم كونه استمراراً متطوراً لما ألفوه.

وقد تحداهم القرآن بأن يأتوا بما يناظر سورة واحدة من القرآن الكريم ...«قل لو اجتمعت الإنس و الجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً» الإسراء، ٨٨.

أعلن النبي(ص) ذلك و كرره على مجتمع لم يعرف صناعة كما عرف صناعة الكلام، ولم يتقن فناً كما أتقن فن الحديث، ولم يتعود على شيء كما تعود على مجابهة التحدي والتغني بالأمجاد، ولم يحرص على إطفاء نور الرسالة الجديدة و تطويقها، و مع ذلك كله يشأ هذا المجتمع الذي واجه تلك التحديات الكبيرة أن يجرب نفسه، ولم يحاول أن يعارض القرآن- بمحاولة جدية ـ إيماناً منه بأن الأدب القرآني فوق قدرته اللغوية والفنية.

والطريف أن الذي كان يحمل اليهم هذا التزاد الأدبي الجديد على حياتهم، إنسان مكث فيهم أربعين سنة، فلم يعهدوا له مشاركة في حلبة أدبية، ولا تميزاً في أي فن من فنون القول.

«فالقرآن الكريم هو أعلى درجات الفصاحة في آياته و سوره كلها، و من المعروف من تاريخ الأدب العربي أن لكل شاعر من شعراء العربية ضرباً من المعاني هو عليه أقدر، و بيانه عنه أعلى، وقد جرى بعضها مجرى الأمثال، وقالوا: أشعر الناس إمرؤ القيس إذا ركب، و النابغة إذا رهب، والأعشى إذا طرب، وزهير إذا رغب. فكل شاعر استغرقه ضرب من المعاني، وامتازت عبارته عنه ضرباً من الامتياز، إلا كتاب الله.

قال تعالى في الترهيب: «واستفتحوا وخاب كل جبارعنيد، من ورائه جهنم، و يُسقى من ماء صديد، يتجرعه ولا يكاد يسيغه و يأتيه الموت من كل مكان و ما هو بميت و من ورائه عذاب غليظ» ابراهيم ١٤/ ١٥-١٧

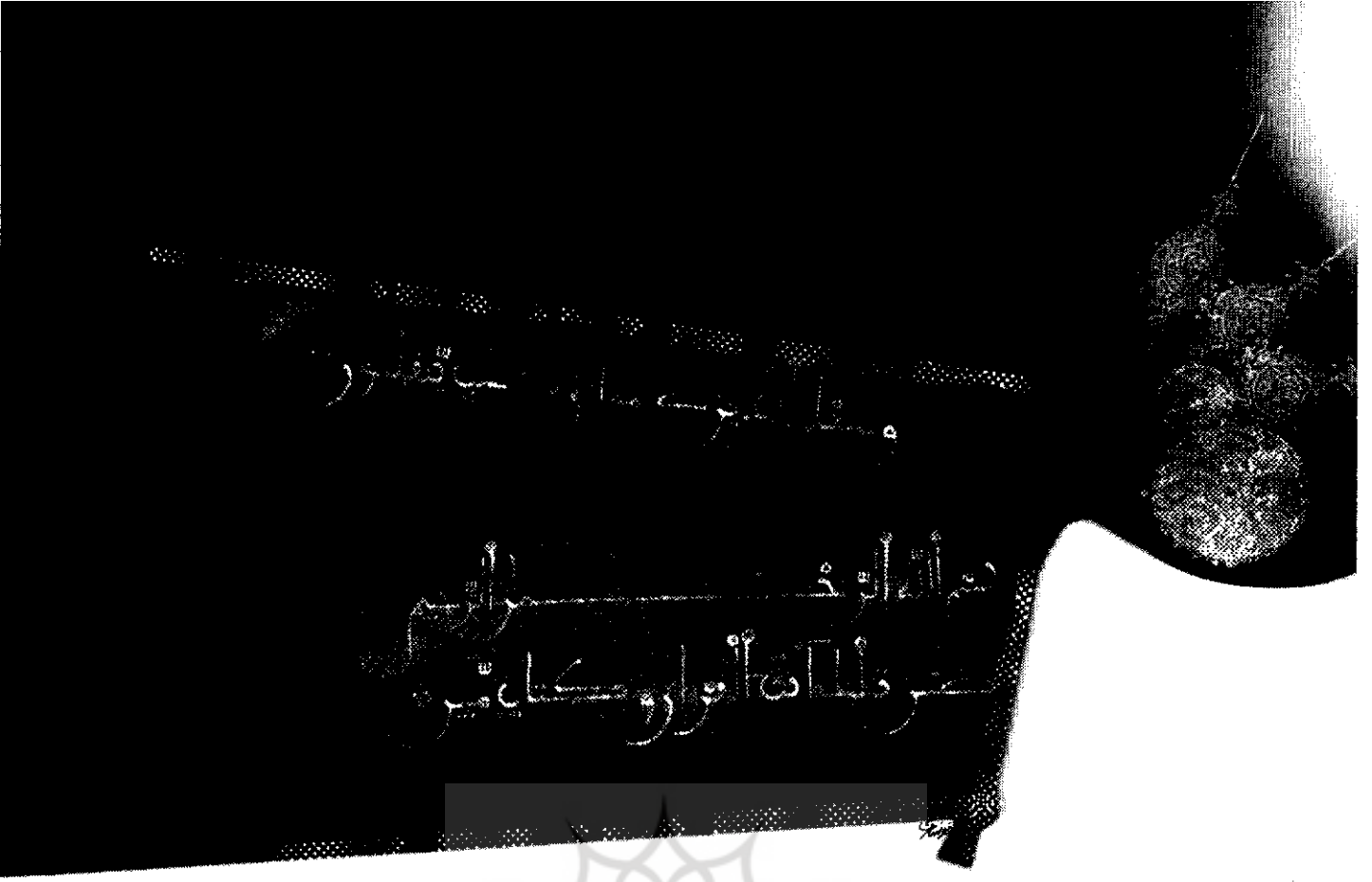

قال الله تعالى في الترغيب «فلا تعلم نفسٌ ما أُخفي لهم من قرّة أعيُن جزاءاً بما كانوا يَعملون» السجدة، ۱۷/۳۲ .

البلاغة في الترغيب كالبلاغة في الترهيب، والأسلوب البلاغي لم يتغير، والزجر و الوعظ أيضاً، بمستوى رفيع لامثيل له، لأمة تباهي ببلاغتها، وتفخر بفصاحتها . وللقرآن موسيقاه الخاصة به، ونغمته المتميزة ، ووقعه الخاص، مع أسلوب غريب في المطلع والمقاطع و الفواصل .

والقرآن ليس بنثر، كما أنه ليس بشعر، إنه قرآن .

ليس نثراً لأن له قيوده الخاصة ، ولا توجد بغيره .

وليس شعراً لأنه غير مقيد بقيود الشعر و تفعيلاته .

ومن الإعجاز اللغوي في القرآن نلمح الى هذه النماذج :

۱ـ من صفات الله تعالى و أسمائه الحسنى أنه «غفور رحيم» وقد وردت هاتان الصفتان في القرآن كريم كثيراً على هذا الترتيب تقديم كلمة (غفور) على كلمة (رحيم)، مثل : «فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا أثم عليه، أن الله غفور رحيم» البقرة ۱۷۳/۲ ، «فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم» البقرة، ۱۹۲/۲

كذلك الحجر ۱۵/۴۹ ، والفرقان ۷۰/۲۵ ، والنمل ۱۸/۱۶ و غيرها من الآيات إلا في سورة سبأ : يتغير ترتيب الصفتين «يعلم ما يلج في الأرض، و ما يخرج منها و ما ينزل من السماء و ما يعرج فيها و هو الرحيم الغفور)، فتقدمت الرحيم على كلمة الغفور خلافاً للمألوف في جميع السور الأخرى، فما السر و الحكمة في ذلك ؟

نلاحظ أن الآية بدأت ب(يعلم) وانتهت (وهو الرحيم الغفور) فتقدمت كلمة (الرحيم) على كلمة (الغفور) لتقترن الرحمة بالعلم، إنسجاماً مع ربط الرحمة بالعلم، وإلا انقلب (العلم) إلي وحشية وظلم و فساد و تدمير، و إن لم يكن العلم رحمة قاد العالم للتدمير لا للتعمير، فالعلم بلا رحمة ، قنابل، دمار، خراب، قتل جماعي بلارحمة (۶) .

۲ـ كلمتا (الأموال) و (الأنفس) إذا اجتمعتا في آية واحدة ، تقدمت الاموال على كلمة الأنفس : (لتبلون في أموالكم و أنفسكم) آل عمران : ۱۸۶/۳ ، و كذلك الصف : ۱۱/۶۱ ، و النساء : ۹۵/۴ ، لأن الإنسان يقدم ماله و يبذله رخيصاً ليحمي نفسه، فتقدم ذكر المال .

أما في سورة التوبة ، يتغير الترتيب، فقد ورد (إن الله اشتري من المؤمنين أنفسهم و أموالهم بأن لهم الجنة) خلافاً للمألوف المعتاد في كتاب الله تعالى فما السر؟ .

إن ثمرة الجهاد في الآخرة هي الجنة ، والنفوس المؤمنة هي التي ستدخل الجنة و تتمتع بها لا الأموال، لذا وردت كلمة الجنة هنا كجزاء يقدم للمجاهدين بعد أن قدموا الأنفس و الأموال في سبيل الله، (بأن لهم الجنة) فناسب أن تتقدم كلمة (الأنفس) علي كلمة (الأموال)، لأن الأنفس أغلي من الأموال، و هي التي ستنعم بالجنة .

۳ـ الفاء تفيد الترتيب مع التعقيب : (وجاء إخوة يوسف فدخلوا

عليه فعرفهم وهم له منكرون) يوسف ١٢/ ٥٨، فالفاء هنا تشعرنا أنه لا حارس ولا حاجب على باب يوسف، فقد دخلوا عليه فور وصولهم، وعرفهم فور دخولهم كل ذلك من مجرد ايراد حرف (الفاء).

(ثم) تفيد الترتيب مع التراخي، أي مع امتداد الزمن، «يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث، فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة، ثم من علقة ثم من مضغة مُخَلّقة وغير مُخَلّقَة) الحج ٢٢/ ٥، فبين مرحلة النطفة والعلقة أربعون يوماً و بين مرحلة العلقة والمضغة أربعون يوماً، ثم دلت على هذا الترتيب مع هذا التراخي في الزمن.

٤ـ(يهب لمن يشاء إناثاً و يهب لمن يشاء الذكور) الشورى ٤٢/ ٤٩.

قدم كلمة الإناث على الذكور، جبراً لخاطر الإناث، ولحب الوالدين بهن. وجاء الإسلام لينقذ الأنثى من مشاعر الاستياء والتشاؤم بهن، وليقول أنهن هبة الله، لقد قدم الاناث في مجتمع كان يكره الاناث.

٥ـ و في سورة التوبة ٩/ ٤٧، بحق المنافقين: (لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا)، لو خرجوا فيكم، لا خرجوا معكم، لأن (معكم) هنا تفيد التكريم بهذه المعية، بينما المراد هنا أنهم مندسون منافقون، فجاء النص (لو خرجوا فيكم)، فأعطت (فيكم) المعنى المراد والمناسب للمنافقين.

٦ـ في سورة النساء ٤/ ٥ (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً و ارزقوهم فيها، واكسوهم و قولوا لهم قولاً معروفاً) (فيها)، (لا منها)، لأن (منها) تعني تآكلها و نقصها، و بالتالي نهايتها، أما (فيها) فتعني من تثميرها و من ريعها و أرباحها.

هذه الأوجه الاعجازية للقرآن هي التي جعلته متحدياً للعرب بقوله تعالى (أم يقولون افتراه فأتوا بسورة مثله) يونس ١٠/ ٣٨، (أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين) الطور ٥٢/ ٣٣.

الإعجاز العددي

وسنلمح الى هذا النوع من الإعجاز ببعض الأمثال:

من المعلوم أن القرآن الكريم نزل مقسماً على مدى ثلاث و عشرين سنة، فلم يكن بين يدي رسول الله (ص) كاملاً مع بدء البعثة، ليقوم- على أميته- بترتيب بعض الكلمات، لتكون إعجازاً عددياً في قادمات القرون.

كلمة الدنيا في القرآن الكريم وردت ١١٥ مرة ووردت كلمة الآخرة ١١٥ مرة ايضاً.

الملائكة ورد لفظها ٨٨ مرة، و كذلك لفظ شياطين ٨٨ مرة.

الحياة و مشتقاتها ١٤٥ مرة و كذلك الموت و مشتقاته ١٤٥ مرة.

الجنة ورد ذكرها ٧٧ مرة والنار ٧٧ مرة.

الحر ٤ مرات، و البرد ٤ مرات.

كلمة يوم مفردة ٣٦٥ مرة بعدد أيام السنة الشمسية.

و كلمة شهر ١٢ مرة بعدد أشهر السنة.

ولفظ (يوم) مثنى و مجموع: ٣٠ مرة بعدد أيام الشهر.

ولفظ (ساعة) مسبوق بحرف ٢٤ مرة بعدد ساعات اليوم.

كلمة (المرأة) مفردة ٢٤ مرة و كذلك الرجل مفردة ٢٤ مرة.

كلمة أقم و أقيموا مقترنة بالصلاة ١٧ مرة و هي عدد الركعات اليومية المفروضة على كل مسلم.

ومن الإعجاز العددي، التناسق العددي في ذكر أسماء أعضاء الانسان و حواسه:

الدماغ، ورد مرة واحدة: (بل نقذف بالحق على الباطل، فيدمغه، فإذا هو زاهق) الأنبياء: ٢١/ ١٨.

للانسان جبهة واحدة وردت (جباههم) مرة واحدة في القرآن الكريم، التوبة ٩/ ٣٥.

والنعاس ورد مرتين الأنفال ١١/ ٨، و آل عمران ٣/ ١٥٤، بعدد العينين.

و (عينان) مثناة وردت مرتين فقط بعدد العينين، في سورة الرحمن: ٥٥/ ٥٠، والرحمن ٥٥/ ٦٦، و كذلك (الدمع) ورد مرتين وذلك في المائدة ٥/ ٨٣، و التوبة ٩/ ٢٩، بتطابق مع العينين والنعاس.

وللانسان (فم) واحد، وردت كلمة (فاه) مفردة واحدة فقط في الرعد ١٣/ ١٤، (الشفتان)، وردت مرة واحدة مثناة، كما هي في الانسان (ألم نجعل له عينين، ولساناً و شفتين) البلد ٩٠/ ٩.

(الجيد) رقبة الانسان، ورد ذكره مرة واحدة، المسد ١١١/

٥، (في جيدها حبل من مسد) و للانسان جيد (رقبة) واحدة.

(البلع) و (البلعوم) ورد مرة واحدة/ هود ١١/ ٤٤ (وقيل يا أرض ابلعي ماءك و يا سماء اقلعي).

اللحية ورد ذكرها مرة واحدة، طه ٢٠/ ٩٤ (قال يا ابن أم لاتأخذ بلحيتي و لا برأسي). و للانسان (عضدان)، و كلمة (عضد) وردت مرتين / الكهف١٨ / ٥١ والقصص ٢٨/ ٣٥، كف (كفاه)وردت مرتين مثناة/ الرعد ١٣/ ١٤، والكهف ١٨/ ٤٢ (كباسط كفيه)، (يقلب كفيه)، وللانسان كفان ليس غير، تطابق عجيب، أن ترد (كفاه) مرتين و مثناة.

وللانسان (قبضتان)، و كلمة قبضة وردت مرتين، طه ٢٠/ ٩٦، والزمر ٣٩/ ٦٧. وللانسان (بدن) واحد، و كلمة بدن وردت مرة واحدة في القرآن الكريم (فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية) ١٠/ ٩٢.

ونوع آخر من الإعجاز العددي:

في مطلع سورة الرعد: أ ل م ر، و بإحصاء هذه الحروف في سورة الرعد نجد أن:

أوردت ٦٢١٥ مرة.

ثم ل وردت ٤٧٩ مرة.

ثم م وردت ٢٤٠ مرة.

ثم ر وردت ١٣٥ مرة. بترتيب تنازلي كما ورد في مطلع السورة الكريمة.

و في سورة البقرة: أ ل م، وبإحصاء هذه الحروف في السورة نجد أيضاً أن:

أوردت ٤٥٩٢ مرة، ثم ل وردت ٣٢٠٤ مرة، ثم م وردت ٢١٩٥ مرة، بترتيب تنازلي، ونجد هذا أيضاً في آل عمران والعنكبوت، والروم.

لقد طلب العرب من النبي (ص) المعجزات الخارقة، والآيات المخالفة لقوانين الطبيعة: (وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه) فكان رد القرآن الكريم على طلبهم قوله تعالى (أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم).

الإعجاز العلمي:

في سورة يس ٣٦/ ٣٨ (والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم) و هي حقيقة علمية، فالشمس تجري نحو نجم عملاق، بسرعة ثلاثين كيلومتراً في الثانية الواحدة، مصحوبة بكواكبها، و أقمار كواكبها.

كما وردلفظ (القمر) ذكر من بعده أنه (نور)، أما إذا ذكرت (الشمس) ذكر من بعدها أنها (سراج)، مثل(وجعل القمر فيهن نوراً، وجعل الشمس سراجاً) نوح ٧١/ ١٦، وهذه حقيقة علمية أخرى، (القمر) عاكس لنور الشمس، أما الشمس فهي متوقدة بذاتها، كالسراج.

وفي سورة الذاريات ٥١/ ٤٧ (والسماء بنيناها بأيد و إنا لموسعون) و هذه حقيقة علمية أيضاً، الكون يتمدد، و يتوسع كما هو معلوم في علم الفلك.

وفي سورة الأنبياء ٢١/ ٣٠ (أولم يرالذين كفروا أن السموات و الأرض كانتا رتقاً ففتقناهما) الرتق ضدالفتق، ويعني التآم و إلحام، والفتق يعني الشق.

والمعلوم علمياً أن كواكب المجموعة الشمسية كانت ملتحمة ملتئمة، ثم أنفتق بعضها من بعض، ثم تبردت.

وفي سورة المزمل ٧٣/ ٥ (يكور الليل على النهار، و يكور النهار على الليل) والتكوير لغة لف الشيء على آخر بشكل مستدير، وهي استدارة الكرة الأرضية.

وفي سورة الذاريات ٥١/ ٤٩ (ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون).

(من كل شيء) انسان، وحيوان، و نبات، و جماداً أيضاً، ففي ذرات كل عنصر موجب و سالب، مثل:

الهيليوم ٢ بروتون موجب، و ٢ بروتون سالب.

الكاربون ٦ بروتون موجب، و ٦ بروتون سالب.

و أثقل المعادن اليورانيوم ٩٢ بروتون موجب، و ٩٢ بروتون سالب.

وفي سورة العنكبوت ضرب الله مثالاً عن الوهن الذي

هو الضعف ببيت العنكبوت لا في خيطه، لأن خيط العنكبوت أقوى من خيط مثيل له من الحديد، الضعف (الوهن) في بيت العنكبوت، حيث لاتعيش الأنثى مع الذكر، و في موسم التزاوج لو أدركته بعد التلقيح لقتلته و أكلته، و بعد خروج الأولاد من بيوضها، لو لم يهربوا لقتلتهم. أن الوهن في البيت، لا في الخيط.

كلمة البحر (معرفة) وردت في القرآن الكريم ٤٢ مرة.

كلمة البر (معرفة) وردت في القرآن الكريم ١٢ مرة، يضاف اليها كلمة (يبساً) التي قابلت البحر في سورة طه، ولم تتكرر (يبساً) في القرآن الكريم.

الأرض إما مياه، و إما بر (يابسة) ولا ثالث لهما.

البحر ٣٢ مرة يشكل من المجموع (النسبة المئوية)=١١١ / ٧٪ بحار.

البر ١٣ مرة يشكل من المجموع (النسبة المئوية)= ٨٨٨ / ٢٨ بالمائة و هي النسبة التي نعرفها.

الإعجاز العلمي كثير جداً، نختمها بهذه الآيات الكريمة:

(يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصّعد في السماء) الأنعام ٦ / ١٢٥

(وترى الجبال تحسبها جامدة، وهي تمر مر السحاب) النمل ٢٧/ ٨٨.

(أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها) الرعد١٣ / ٤١.

(وكل في فلك يسبحون) يس ٣٦/ ٤٠.

ففي الآية الأولى (يصعد) في طبقات الجو، إشارة الى ضيق الصدر بسبب نقص كميات الهواء في الطبقات العليا، ثم تلاشيها، وفي الآية الثانية، الجبال تمر كما يمر السحاب، دلالة علمية على حركة الأرض، والآية الثالثة: سرعة دوران الأرض حول نفسها، والآية الرابعة: إشارة الى ظاهرة التعرية، وهي حركة مستمرة بطيئة، والآية الخامسة: الشمس والقمر والكواكب كلها سابحة في أفلاكها في هذا الكون الرحب الفسيح(٧).

تحرير القرآن للانسان من الوثنية

و هميين بينهم و بين الله تعالى و كانوا يؤمنون لهؤلاء الوسطاء قدرتهم على النفع والضر، فجسدوهم في أصنام من الحجر كان العرب قبل نزول القرآن عليهم، يعتقدون بوجود وسطاء، حتى تطورت فكرة الوساطة الى الاعتقاد بألوهية الوسطاء، و مشاركة تلك الأصنام لله في تدبير الكون، فكان لكل قبيلة أو مدينة صنم خاص، بل لكل بيت صنم خصوصي.

ولم يقتصر العرب على عبادة الأحجار، بل كان لهم آلهة شتى من الملائكة والجن والكواكب.

و في هذا الجو الوثني جاء القرآن ليرتفع بالانسان من الحضيض و يحرره من أسر الوثنية و مهانتها و يركز بدلاً عنها فكرة العبودية لله وحده لاشريك له، ويعيد للانسان إيمانه بكرامته و ربه.

وقد استطاع القرآن ببرهة زمنية قصيرة أن ينتصر على الوثنية، و يصنع من المشركين أمة موحدة تؤمن بالله لاأيماناً نظرياً فحسب بل إيماناً يجري مع دمائها و ينعكس في كل جوانب حياتها. وجعل منهم أمة لاتستكين لجبروت الملك و عظمة الدنيا و تمتد أهدافها نحو تغيير العالم و هداية الشعوب، الى التوحيد و الإسلام و إنقاذها من أسر الوثنية و مختلف العبوديات للآلهة المزيفة.

تحرير القرآن للعقول

كانت الأساطير و الخرافات شائعة بين العرب لانخفاض مستواهم الفكري و أمنيتهم بصورة عامة، كانوا يعتقدون بالغيلان و يؤمنون بأساطيرها، وكانوا يعتقدون أن نفس الأنسان طائر ينبسط في جسم الانسان فإذا مات أو قتل كبر هذا الطائر و يبقى يصرخ و يتوحش و يسكن في الديار المعطلة.

وقد جاء القرآن برسالة الإسلام، فحارب تلك العقائد و الخرافات، ودعاهم الى التفكير الأصيل والاعتماد على العقل و رفض التقليد، أو الجمود على تراث السلف، وقد حث القرآن على التفكر في الكون والتأمل في أسراره واكتشاف آياته و قرر ربط ذلك بالإيمان بالله، و أعلن أن العلم هو خير دليل للإيمان بالله، و أن الأيمان يتأكد كلما اكتشف الانسان و تقدم في ميادين العلم «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم» فصلت/ ٥٣.

تحرير القرآن للانسان من عبودية الشهوة

كما حرر القرآن عقيدة الانسان من الوثنية، وعقله من الخرافة، كذلك حرر إرادته من سيطرة الشهوة، فصار الانسان المسلم قادراً على مقاومة شهواته وضبطها والصمود في وجه الاغراء والإغراء.

وقد استطاع الإسلام من أن يجعل من الشهوة أداة تنبيه للانسان الى ما يشتهيه لا قوة دافقة تسخر إرادة الانسان دون إن يمتلك بإزائها حولاً أو طولاً، وقد أطلق (ص) على عملية تحرير الانسان هذه من شهواته الداخلية باسم الجهاد الأكبر. مثال على ذلك تحريم الخمر و مدى نجاح القرآن في تحرير الانسان المسلم من أسرها. بينما فشلت أمريكا سنة ١٩٢٠ م من تخليص شعبها من مضار الخمر، لأن الغرب بالرغم من مناداته بالحرية لم يستطع أن يمنح الانسان الغربي الحرية الحقيقية التي حققها القرآن الكريم للانسان المسلم و هي حريته في مقابل شهواته وامتلاكه لإرادته أمام دوافعه الحيوانية.

وهنا يأتي دور الخطوة الثالثة:

لتؤكد على أساس الاستقراء العلمي في تاريخ المجتمعات، أن هذه الرسالة بتلك الخصائص التي درسناها في الخطوة الثانية هي أكبر بدرجة هائلة من الظروف والعوامل التي مر استعراضها في الخطوة الأولى، فإن تاريخ المجتمعات و إن كان قد شهد في حالات كثيرة إنساناً يبرز على صعيد مجتمعه، فيقوده و يسير به خطوة الى الأمام، غير أننا هنا لا نواجه حالة من تلك الحالات، لوجود فوارق كبيرة.

فمن ناحية نحن نواجه هنا طفرة هائلة و تطوراً شاملاً في كل جوانب الحياة وانقلاباً في القيم والمفاهيم بمختلف مجالات الحياة الى الأفضل، بدلاً من مجرد خطوة الى الأمام.

نرى أن مجتمع القبيلة يطفر رأساً على يد النبي (ع) الى الإيمان بفكرة المجتمع العالمي الواحد.

و أن المجتمع الوثني يطفر رأساً الى دين التوحيد الخالص، الذي صحح كل أديان التوحيد الأخرى، و أزال عنها الأساطير و الخرافات.

وأن المجتمع الفارغ تماماً، تحول الى مجتمع ممتلئ تماماً، بل إلى مجتمع قائد يشكل الطبيعة لحضارة أنارت الدنيا كلها.

ومن ناحية أخرى، إن أي تطور شامل في مجتمع، إذا كان وليد الظروف و المؤثرات المحسوسة، فلا يمكن أن يكون مرتجلاً و مفاجئاً، و منقطع الصلة عن مراحل تمهد له.

إن دراسة مقارنة لتاريخ عمليات التطور في مختلف المجتمعات يوضح أن كل مجتمع يبدأ فيه التطور فكرياً على شكل بذور متفرقة في أرضية ذلك المجتمع، و تتلاقى هذه البذور فتكون تياراً فكرياً، و تتحدد بالتدريج معالم هذا التيار و تنضج في داخله القيادة التي تتزعمه، حتى يبرز على المسرح كواجهة لجزء يعيش في المجتمع تناقض الواجهة الرسمية التي يحملها المجتمع و من خلال الصراع يتسع هذا التيار حتّى يسيطر على الموقف.

وخلافاً لذلك نجد أن محمداً(ص) في تاريخ الرسالة الجديدة لم يكن حلقة من سلسلة و لم يكن جزءاً من تيار، ولم تكن للأفكار والمفاهيم التي جاء بها بذور أو رصيد في أرضية المجتمع الذي نشأ فيه. بل كان التيار الذي تكون من صفوة المسلمين فقد كان من صنع الرسالة.

ومن ناحية ثالثة يبرهن التاريخ على أن القيادة الفكرية والعقائدية والاجتماعية لتيار جديد، إذا تركزت كلها في محور واحد، ومن خلال حركة تطور فكري و اجتماعي معين، فلا بد أن يكون في هذا المحور من القدرة و الثقافة و المعرفة ما يتناسب مع ذلك، ولا بد أن يكون تواجدها فيه طبقاً لما يعرف عادة من أساليب في حياة الناس، ولابد من ممارسة متدرجة. و خلافاً لذلك نجد أن محمداً(ص) قد مارس بنفسه القيادة الفكرية و العقائدية والاجتماعية دون أن يكون تاريخه كانسان أمي لم يقرأ ولم يكتب، ولم يعرف شيئاً من ثقافة عصره و أديانه المتقدمة يرشحه لذلك من الناحية الثقافية و دون أن تكون له أي ممارسات تمهيدية لهذا العمل القيادي المفاجئ.

وعلى ضوء ذلك كله ننتهي الى الخطوة الرابعة التي نواجه فيها التفسير الوحيد المعقول و المقبول للموقف، وهو افتراض عامل إضافي وراء الظروف و العوامل المحسوسة و هو عامل الوحي الذي يمثل تدخل السماء في توجيه الأرض.

(كذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ماكنت تدري ماالكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا) الشورى / ٥٢.

السلام عليكم و رحمة الله و بركاته

الهوامش

(١) للمزيد راجع المحاضرة الثالثة من كتاب مقدمات في التفسير الموضوعي للقرآن للسيد الشهيد الصدر.

(٢) اعتمدنا في هذه الدراسة على المفكر الإسلامي الشهيد محمدباقر الصدر في كتابه الأسس المنطقية للاستقراء.

(٣) للمزيد راجع كتاب الأسس المنطقية للاستقراء، وكتاب المرسل والرسول و الرسالة / محمدباقر الصدر.

(٤) نفس المصدر السابق

(٥) للمزيد راجع كتاب علوم القرآن-محمدباقر الصدر- والحكيم.

(٦) راجع للمزيد كتاب / قبس من الإعجاز / هشام الحمصي.

(٧) راجع للمزيد كتاب / الحوار دائماً / د. شوقي أبوخليل.